مقاربة حبيب مونسي للتردد السردي في قصة موسى عليه السلام

Habib Munsey's approach to the narrative frequency in the story of Moses *(peace be upon him)*

عتاوية بن عفان *	يوسف سعداني
جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس (الجزائر)	جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس (الجزائر)
attaouiaben2021@gmail.com	mhmdsaad548@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021-06-14 تاريخ القبول: 2022-03-15 تاريخ النشر: 2022-05-13

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على مقاربة حبيب مونسي **للتردد السردي** في قصة موسى عليه السلام، استنادا إلى مبدأ "**المماثلة**" بين زمنين؛ زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وزمن موسى عليه السلام، أي بين سياقين متباعدين: سياق القصة التاريخي، وسياق الرسالة وما يستجد فيه من أحداث.

وانطلاقا من ذلك، يعاين الباحث المشهد السردي في صوره المتنوعة، فيصبح القارئ أمام مشاهد سردية متعددة للحادثة الواحدة. وهكذا، يغدو كل تردد نصا جديدا ومختلفا. وبناء على ذلك، يتمظهر أيضا الموضوع نفسه بتمظهرات مختلفة من سورة إلى أخرى؛ وحتى الخطاب القرآني سيتلون بحسب ذلك التحوّل.

الكلمات المفتاحية: التردد، السرد، المماثلة، المشهد، الخطاب.

Abstract:

This research work seeks to identify Habib Munsey's approach to the narrative frequency in the story of Moses *(peace be upon him.)* It is based on the principle of analogy between two eras; the time of the Prophet Muhammad (PBUH), and the time of Moses. That is, we focus on the comparison between two distant contexts: the historical context of the story and the context of the Message, and the events that emerged from them. On light of this, the researcher examines the narrative scene in its varied forms, so that the reader becomes confronted with multiple narrative scenes of one incident. Accordingly, each frequency becomes a new and different text, and thus the same topic appears differently from one sūrah *(chapter)* to another, and even the Qur'anic discourse is altered according to such transformation.

Keywords: Frequency, narration, analogy, scene, discourse.

*بن عفان عتاوية.

1.مقدمة:

لا شك أنّ الله في العرض القصصي القرآني إنما يريد للإنسان أن يُحسن استخلافه في الأرض، وما الأنبياء والمرسلون إلا مبشّرين ومنذرين يحملون همّ الرسالة السماوية إلى البشرية عبر تشريع قانون السماء الواحد، وإن تعدّدت هيئات التبليغ فيه، إنّها هيئات رغم ظاهرها المختلف تَخرج من سراج واحد يُشعّ نورا وهداية لمن آمن به.

يلفت حبيب مونسي بمقاربته المشهدية إلى ظاهرة جديدة تمدّ النص السردي بإمكانات تكسو القراءة تجدّدا مستمرا، وتكشف عن خاصية فريدة في لغة السرد القرآني متعدّد الهيئات، فتجهر بتفرّده الذي يتنزّه به عن بقية النصوص، وتجعل من القراءة رحلة عِلم ومتعة ودراسة واستكشاف فكري وفني.

يؤسس حبيب مونسي في دراسته لقصة موسى عليه السلام لما سمّاه بالقراءة بالمماثلة؛ وفي هذه التسمية احتاج الباحث إلى أن يُعرّف للقارئ ماهية المصطلحات التي استخدمها في التماثل الذي توصل إليه، إذ لا يمكن فهم مقاصد الباحث ومراميه ولا تدبّر آليات المقاربة المنتَجة دون تحديث استعمال بعض المصطلحات المتداولة في ميدان النقد والفلسفة والأدب، لقد أراد حبيب مونسي لبعض المصطلحات أن تتجرّد من محمولها الفكري الذي أودِع فيها لتعمُرها قراءته بما يراه أنسب في التعامل مع هذا النموذج الفريد المعجِز في لغته ومعماريته ونسقه الحيّ الذي يحتاج في قراءته — من أجل استحصاد المقاصد والغايات– إلى مقاربة عامرة بالتجديد الذي يشاكل الحياة ذاتها.

2.إبطال مقولة التكرار في القرآن:

يبدو أنّ أول ما اهتدى إليه حبيب مونسي في دراسته التي أثمرت توجّها جديدا في مقاربة النص القرآني تصحيحه لمفهوم التكرار لدى المفسرين ودارسي النص القرآني لأنهم تعودوا توظيف مصطلح التكرار للتعبير عن ورود بعض المقاطع القصصية في عدّة مواطن من العرض القرآني، وهو ما دعاه إلى أن يفزع إلى إبطال هذه المقولة مستأنسا بعلماء النحو والبلاغة وعلم النفس والتواصل والتلقي مستعيضا بمقولة **التردد** بدلا من التكرار الذي حتى وإن صح وجوده "في الصوت واللفظ والعبارة، فإنه لا يصلح أبدا في النص. بل تكرار الصوت، وتكرار اللفظ لا ينتهي أبدا إلى المعاودة التي يأتي فيها العنصر المكرر على الهيئة التي كانت له من قبل. ذلك أننا نشهد في الاستعمال العادي ضروبا من التردد، يأخذ فيها العنصر "المكرر" هيئات تنصرف بالدلالة إلى أبعاد تواصلية."[1] ويمكننا رصدها إذا ما واكبنا سياق التلقي في حركية السرد القرآني وِفق المقاربة الجديدة.

يفصل حبيب مونسي في **مقاربته بالمماثلة** بين نص السرد ونص القصة ذلك أنّ نص القصة المثالي لم يُقدّم مكتملا في حركية سردية واحدة شاملة للحبكة الكبرى بجزئياتها في العرض القرآني لكن العلم بنص القصة الكامل قد أحاط به السارد إحاطة مكتملة لا تغيّب شيئا فيها إلا وشملته هذه الإحاطة في حين يمثّل نص السرد إضاءة لوجه من الوجوه المتعددة لنص القصة المثالي المنوط بالغاية التي يتوخاها السارد عز وجل من خلال هذا الوجه دون الآخر، ذلك أنّ الموقف الواحد قد يُقرأ من زوايا متعددة، فيتناول منه صاحب القصد الرؤية المناسبة للجانب

المطروح والتي تخدم توجّهه الآني، وهو توجّه لن يكون قارا في نصوص السرد كلها، ذلك أنّ كتاب الله له من المقاصد ما نعجز عن الإحاطة به دفعة واحدة، إنّه سرّ الإعجاز القرآني الذي يخفي دلالاته دون أن يغيّبها، وجلاؤها مرهون باستكشافها، والتردّد يكشف مكنوناتها.

نجد حبيب مونسي ينفي وجود ظاهرة تسمى التكرار في النص القرآني، والأمر الذي يجعلنا نصادف المقطع القصصي في مواطن متعدّدة من النصوص موكول إلى الغرض الدقيق والمقصد الخاص في نص السرد الذي يُعرض في هيئة أسلوبية تخدم دقّة المقصد دون أن تخرج من المقصد العام الذي يحيط به نص القصة المثال. وإذا كانت مقاربة الباحث مشهدية، "فالمشهد في نص القصة "المثال" شاخص، بعيد عن نص السرد، يقتطف منه هذا الأخير الهيئة التي تناسب المعمار العام للسورة وأجواءها، وقد يعود إليه ثانية وثالثة ليقتطف منه الموضوع عينه، ولكن في أثواب تتلون وتتمايز طولا وقصرا، بسطا وانقباضا. وصنيع اللغة في كل ذلك يراوح بين الجوّ المشاع داخليا في السرد و بين الجوّ العام للسورة."[2] ليشدّ القارئ إلى دقة القصد وتوجّهه.

تُظهر فكرة التردد السردي في مقاربة الباحث أنّ نص السرد هو وجه من وجوه القصة المثال الذي يعرض علينا مشهدا أو أحد الحبكات الصغرى منها المعبّر عنه بلغة القص التي تحمل هيئة أسلوبية تتناغم ألفاظها وتنسجم معلنة للقارئ عن محمول الخطاب في نص السرد.

لقد سبقت الإشارة إلى حاجة الباحث في عرضه لمختلف الظواهر التي عاينها في السرد القرآني إلى توظيف مصطلحات مستوحاة من روح النص القرآني بحيث تكون خالية من الشوائب الفكرية، وإن كان لا مناص من ذلك فإنّه يُعلن تحرّجه "كثيرا أمام المصطلحات التي نعالج بها كل ذلك. فنجاهد أنفسنا في زعم إفراغها من محتوياتها التي كانت لها من قبل، والتقدم بها إلى رحاب النص القرآني، وكأنها جديدة السبك والإنشاء."[3] ثم يضيف "غير أننا –أمام هذا الوضع الحرج– نستأنس بتفهّم القارئ لمرادنا في المعالجة، ونحن نروم التوقف عند مصطلحي "الموقف" و"السياق" بعيدا عن الطرح الوجودي لفلسفة المواقف التي وسعها سارتر، وعن الفهم الذي رصدته اللسانيات بعد المقولات الاشتراكية والواقعية للسياق."[4]

وهكذا نعاين حرص حبيب مونسي على تمثّل المصطلح الأنسب الكفيل بنقل خلفية نقية تهيّئ للمحمول الذي يرومه، نجده يواجه معضلة لا يملك منها إلا تبسيط ماهية المصطلح وإفراغه ما استطاع من محموله الفكري، إنّه لا يقصد بالموقف في مقاربته، –يقول– غير معنى الوقوف ومكان الوقوف وزمنه، كما لا يقصد بالسياق غير معنى السوق والإدراج والمصاحبة، ومنه يعمد إلى توضيح مصطلح الموقف الذي يحمل مفهوما تمليه عليه هيئات الشخصية المشحونة بما اعترى المشهد السردي من حركية تتطلبها مقاصد السارد بلغة القص التي ترفع إلينا نص السرد حيّا تتناغم عناصره في تشكيل معبّر عن حقيقة الموقف المعروض على المتلقي بنسيج من اللغة أمين على هذا الموقف.

يرى حبيب مونسي أنّ السارد في قصة موسى عليه السلام وهو يخاطب الشخصية الرئيسية في سورة طه[5] يُلبّي حاجتها لأداء الرسالة، لأنه المحيط بضعفها وقوة عدوّها وواجب طاعتها له عز وجل، وهو الذي هيّأ لموقفها

هذا نسيجا من اللغة يذكّرها فيه بالعناية التي شملتها وهي رضيع ويُعدّها فيه للمسؤولية الدعوية الملقاة على عاتقها، كما يشعرها بحضور هذه العناية المعجزة في مهمته المقبلة، إنّه الموقف الذي يعلم السارد فيه نوعيّة النسيج اللغوي الحامل لخطاب شدّ الأزر بألفاظ تتناسب وشدّة العدوّ، وهو الأسلوب الذي غيّبه السارد في الوجه الآخر من القصة المثال عندما تردّد المقطع القصصي في سورة القصص[6] مخاطبا نبيّ الله محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد تغيّر الموقف واعترى المشهد الجديد حركية عاطفية فيها من اللين والرفق والرحمة للنبي عليه الصلاة والسلام ما يجعل لغة القص تستعيض عن عبارات الشدّة بما يتناسب والموقف الجديد الذي لا ينقله بأمانة إلا نسيج من اللغة يحاكي موقف طمأنة الأم على وليدها، وهو في تابوت في اليمّ يتّجه نحو العدوّ.

ولابد من التذكير في هذا المقام أنّ الباحث حبيب مونسي قد اصطنع مصطلح "التكرار" في سياق حديثه عن فعل الكلام عند الأصوليين والبلاغيين؛ إذ إنّ " إحلال المتلقي للكلام مكانة أولية في عملية التواصل وتبيان المقاصد، حتم على علماء الأصول عدم إغفال شروط التلقي، وما يكتنفها من وضعيات قد تحول دون الفهم السليم للملفوظات. فإذا نحن فحصنا على سبيل المثال مبحثا واحدا اشترك فيه الأصوليون والبلاغيون، كالتكرار مثلا، أدركنا دقة التحري في عرض الأسباب التي تلجئ المتحدث إليه، وترغمه على معاودة اللفظ أو العبارة في صيغة ذاتها."[7] ومن هذا المنظور نلفي الباحث قد قارب التكرار والتوكيد التواصلي، والتكرار بين النحو والبلاغة.

وفي هذا السياق، وقف حبيب مونسي على المعطى اللغوي للتكرار لدى الزركشي من خلال دلالته على ردد الشيء وأعاده[8]، كما ذكر " إشارة الزركشي إلى انقسام الدارسين – في مسألة التكرار- إلى قسمين: قسم يعده من أساليب الفصاحة، وقسم يرى فيه العي والحصر الذين يفضيان بصاحبهما إلى تكرار القول عيّا أمام الانطلاق والاسترسال. وهي مسألة تجد حجتها في كلا الموقفين من المعاينة لأحوال التواصل والمتواصلين في الخطابات العادية والرسمية. وكأن المتكأ الذي تقام عليه الحجة في التقرير والنفي، إنما يقوم على الهيئة التي يتلبّسها المتحدث أثناء الحديث في السياق الذي يجرى فيه تواصله، وفي الظرف النفسي الذي يرفد كل ذلك في اتجاه المتلقي."[9] وعلى هذا النحو، يرتبط "التكرار" بالعملية التواصلية استنادا إلى تفاعل وتضافر ثلاثة عناصر أساسية: المتحدث، المتلقي، والموضوع. وفي كل الأحوال، " ففصاحة التكرار آتية من التوكيد والتقرير وإحكام الحجة من خلال ضرب من "القرع" الذي يؤديه اللفظ المكرر، أو العبارة المرددة... وما يحمد للزركشي – في هذا المقام- التفاته إلى ما يؤسس اليوم في الفهم الحديث حقيقة التوتر النفسي الذي يجد في المكتوب والمنطوق آثاره الدالة عليه."[10] والمهم، هنا، أنّ حبيب مونسي قد استعمل التكرار بوصفه تواترا للفظ والعبارة مستأنسا بالزركشي.

ونجد الباحث يصطنع مصطلح "التكرار" أيضا من منظور النحو والبلاغة، حيث تعامل النحاة مع التوكيد على أنّه " ظاهرة لغوية يتبنون فيها أثر العوامل، بينما يرعى البلاغيون مقام الخطاب، أو نفسية السامع، شكا أو إنكارا أو تكذيبا."[11]وانطلاقا من ذلك يخلص حبيب مونسي إلى أنّ النحاة يشتغلون على التكرار بوصفه بنية بالنظر إلى النسق الذي يرد فيه، في حين يهتم البلاغيون بالتكرار من خلال العلاقة التي تربط بين الباث والمتلقي في بعدها النفسي من جهة؛ وفي صلته بمقام الخطاب. ولكن في الحالتين يحرص الباحث كما في السابق على تكرار

اللفظ والعبارة؛ غير أنّه يؤكد على حضور القارئ في العملية التواصلية، بمعنى أنّ التكرار في هذه الوضعية ليس حشوا ولا زخرفا فجا.

وهكذا، فإنّ التردد السردي في القرآن الكريم كان بمقتضى مقاصد التبليغ القرآني، وتجدد واقع المسلمين في صراعهم مع صور الكفر والشرك والنفاق المتلونة، فضلا عن كسر خطية السرد، فتتردد القصة القرآنية الواحدة في أكثر من سورة، ممّا يثري عملية التلقي من خلال تداخل وتفاعل زمن الرسالة المحمدية بزمن موسى عليه السلام. إذ " لا يمكننا أبدا الادعاء بأنّ المنهج الذي سلكناه في قراءتنا لقصة موسى عليه السلام هو المنهج الأكمل في مقاربة التردد السردي في القرآن الكريم. فقد اهتدينا إلى أنّ مقولة التردد ستجنبنا الوقوع في "التكرار" الذي وجدنا كثيرا من المفسرين، ودارسي القرآن يستعمله للتعبير عن ورود مقاطع من القصة في مواطن متعددة من القرآن الكريم."[12] وعلى هذا النحو، يضعنا حبيب مونسي أمام مجموعة من الحلقات والمشاهد القرآنية تتلون فيها المواقف والترددات السرديّة.

وتأسيسا على ما تقدم يكون حبيب مونسي قد اقترح مصطلح **"التردد"** بدل **"التكرار"**، الذي يحيل لدى المفسرين ودارسي القرآن على حضور مقاطع من القصة القرآنية في مواضع متعددة من القرآن الكريم. ومن ثم لا يستقيم "التكرار" في النص؛ إذ إنّ العنصر "المكرر" في نظر الباحث لا يتردد في هيئات ثابتة، لذا ستكون الترددات السردية متنوعة في مختلف سور القرآن.

3.الموقف السردي:

يذهب حبيب مونسي إلى أنّ **الموقف السردي** يستدعي موقفا آخر يقابله في سياق التلقي، ويتم ذلك على أساس المماثلة والمجانسة بين الموقفين، ومن هنا سيتعزز التشابه بين المواقف المتفاعلة انطلاقا من مراعاة الباحث لتوالي النزول للسور، فضلا عن توالي المقاطع زمنيا، ممّا يجعل القارئ أمام تراسل مزدوج بين أحداث القصة المتدرجة والمواكبة لهذا السرد على مستوى سياق التلقي. وسيفضي ذلك إلى تجدد في النص القرآني، وتنفي عنه سمة التكرار.

إنّ **الموقف السردي** في مقاربة الباحث ينكشف على طبيعة مزدوجة تندمج فيها شبكة من العناصر محاولة إحداث تماثل في القراءة بين موقفين، لذا يجب على "المتتبّع لأحداث القص أن يتحرك في تلقيه بين أفقين: أفق يكتنف الشخصية القصصية، فيكون إزاء موقف داخلي... وموقف آخر خارجي، يلتفت إلى من أنزل عليه القرآن الكريم... وكأننا حين نقرأ لابد لنا من الانتباه المزدوج الذي يمكّننا من مصاحبة الشخصية القصصية في كافة أحوالها ومشاعرها، وينفتح بنا على وقع القصة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أولا ثم في نفوس المسلمين ثانيا."[13] ومنه على المتلقي أن يستحضر موقفين في آن واحد، ويقوم بإسقاط العناصر المتماثلة بين ما هو داخل نص السرد. عندما يتوجه الخطاب إلى موسى عليه السلام– وما يقع خارجه من تلقٍّ لهذا النص من قِبل محمد

عليه الصلاة والسلام وحياً، ولا شك أنّ الباعث على التماثل الحاصل هو الغاية الواحدة التي يرومها السارد من الموقفين، لاسيما أنّ سياق الموقفين يقارب هذه المماثلة في تمثيلها للصراع بين الحق المستضعف والقوة المستبدّة.

والملاحظ أنّ حبيب مونسي قد تتبع القص القرآني حسب ترتيب النزول، حيث كان هدفه من ذلك "تتبع تطور هذا القص مع تطور الدعوة المحمدية من جهة، والتعرف، من جهة أخرى، إلى الكيفية التي وظف بها القرآن هذا القص كنوع من أنواع البيان لنصرة هذه الدعوة."[14] وإذا كان الباحث قد اعتمد على سبب النزول الذي يحكم التراسل بين المواقف، فإنّه كان يتوخى من ذلك رصد أسباب التماثل، ولعل ذلك كان السند المفصلي في تقطيعه لقصة موسى عليه السلام إلى سبعة نصوص:

1_ نصوص النشأة.

2_ نص مدين.

3_ نصوص الرسالة.

4_ نصوص المواجهة.

5_ نصوص ناتجالمواجهة.

6_ نصوص الخروج.

7_ نصوص التيه.

وعلى هذا الأساس تصبح قصة موسى عليه السلام مجموعة من الحلقات، يرصد فيها حبيب مونسي عددا من النصوص، يقرأ من خلالها التردد السردي القرآني. ومن ثم ستقدم القراءة بالمماثلة في نظر الباحث التقابل بين سياقين متباعدين زمنيا: سياق القصة القرآنيةالتاريخي(**سياق موسى عليه السلام: سياق التاريخ) وسياق الرسالة المحمديّة(سياق محمد صلى الله عليه: سياق النزول/سياق الدعوة)** وما فيها من أحداث مستجدة.

4.السياق السردي القرآني:

تحديد دلالة السياق في دراسة حبيب مونسي تشير إلى أنّ مفهوم السياق "يتّسع أكثر ليكون الوسط الذي تتحرك فيه الحكاية كلها بمجموع شخصياتها وأحداثها ومشاعرها."[15] إنّه نسيج من المعطيات وشبكة من المستويات تتعدى ما أفصح عنه الخطاب اللغوي إلى كل ما من شأنه أن يشارك في تشكيل الموقف المعروض في هيئة أسلوبية معينة، والذي بإمكانه تلويث القصد الأول للخطاب بما شاب السياق من عناصر التلويث تسود الموقف، لينتقل المعنى من قصديه المخاطِب الأولى مرورا بالسياق الذي لوّث تلك القصدية ولونها بحيثياته عبر قناة التلقي الذي حصل فيها ذاك التلويث إلى فهم المخاطَب أو القارئ الذي تلقى رسالة الخطاب وقد تحوّرت إلى ما يرتضيه السياق.

ومن هذا الفهم اهتدى الباحث في مقولة السياق إلى التمييز بين سياقين في السرد القرآني، أو مقامين: المقام الأول داخلي يخص الشخصية الرئيسية –موسى عليه السلام– وما عايشه وما عاصره من حيثيات، والمقام

الثاني خارجي يلامس التلقي الحاصل لقارئ القصص القرآني بوجه عام، ولمن أُنزل عليه الوحي بوجه خاص دون أن نعدِم تصوّرنا للوسط العام الذي تمّ فيه الموقف الأول في نص السرد، وهو ما لوّن السياق بما ساد المجتمع المصري من ألوان الظلم والقهر الفرعوني، ولا نعدِم في الآن نفسه الوسط المماثل الذي لوّن مجتمع النبي صلى الله عليه وسلم بالكفر والتعصّب الجاهلي القرشي، ولا أن نعدِم أيضا في التلقي ذاته للوسط الذي تتم فيه القراءة وما يشوبه من حيثيات وعواطف وأمزِجة، وما تقتضيه حياة القارئ في تحولاتها التي من شأنها أن تغيّر لون الشوائب في قناة التلقي، فيُثمر ذلك فهما مغايرا لقصديّة السارد.

ولن يحدث التماثل في القراءة ما لم نجاهد زمن التلقي باستحضار القِوى المشكلة للسياق الداخلي للقص معايشة تتوسط الزّمنين الداخلي والخارجي الآني، إذ لا يمكننا فهم قصدية السارد ما لم نعايش الفرعونية المقصودة في نص السرد، وهو ما سمّاه الباحث بالسياق الداخلي الذي ينقل حركية السرد إلى خارج النص عبر أول محطة في التلقي المتمثلة في الوحي الذي تلقّاه محمد عليه الصلاة والسلام ومن شهد الوحي معه أو عايشه فآمن به.

ثم يتحرك نص السرد من هناك إلى محطات لا تضبطها حدود زمانية ولا مكانية، إنّها حركية أبدية تلازم التلقي لهذا النص المقدس الذي ضمن سارده عز وجل حِفظه في كل زمان ومكان. وبحفظه يُحافظ على نصوص السرد بما تختزنه من سياق داخلي مؤهِّل للتحديث من خلال التلقي لإحداث تماثل بين السياق الداخلي وسياق التلقي الخارجي الذي يتمّ فيه استقبال الخطاب السردي.

قد يتراءى لمن يحاول رصد المقاربة بالمماثلة لدى الباحث مفهوما خاطئا، فيخال أنّ المماثلة في الدراسة يتّجه زمانها من **السياق الداخلي** لما عاصره موسى عليه السلام إلى سياق التلقي لمحمد عليه الصلاة والسلام، لكن سرعان ما يكتشف العكس، فيتبين له من خلال النموذج السردي الذي ساقه الباحث كيف أنّ المماثلة المقصودة تنتقل بداية من سياق التلقي الحاضر وما اعتراه من مقتضيات الدعوة نحو وجه من وجوه القصة المثال، والتي يحيط بها علمه عز وجل يتناسب وينسجم مع سياقه الداخلي لإنجاح المؤانسة وتجديد الثقة بين السارد والمتلقي الأول عليه الصلاة والسلام.

إنّ الباحث في توضيحه لهذه الجزئيّة يرصد لنا المماثلة في آية نزلت بين مكة والمدينة "في وقت هجرة رسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وهي قوله عز وجل:**{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}**[16]وارتباط السورة بواقع الهجرة في سياق التلقي، يعطي للمقاطع السردية فيها قيمة أخرى غير قيمة الخبر. إنّ التماثل بين السياقين: الداخلي والخارجي يرفع إلينا جوّ الخروج من أرض مصر، والغيبة التي عاناها موسى عليه السلام بضعا من السنين، ثم العودة إلى مصر ثانية. وكأن السرد يحمل في طيّاته بشارة العودة إلى مكة، وليس الخروج منها اليوم إلا خروجا مؤقتا، تفرضه ضرورة الرسالة في البحث عن بيئة مناسبة لنشأتها.

إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه يقرؤون فيها المعاد الذي جاء صريحا في الآية المدنية. ومن تم لا تستقيم قراءة السرد إلا من خلال **قراءة المماثلة** التي تضع النص بين سياقين متباعدين. تقتطف من هذا ما تطعّم

به ذاك."[17] ومنه نجد أنّ الدعوة المحمدية احتاجت في ثباتها وجها من وجوه القصة المثال لتعزيز هذا الثبات، فخروج النّبيّين عليهما السلام من أرضهما وإن تعدّدت هيئاته ومضامينه، يصنع تماثلا متباعدا زمنيا ومكانيا مشتركا في كون الهجرة مؤقتة، وفي كون الباعث إليها هو الامتثال لمراد السارد والإخلاص له.

إنّ اختيار هذا الوجه من القصة المثال لموسى عليه السلام مرهون بحاجة السياق الخارجي لهذا المشهد أو ذاك مما تردّد من مشاهد للقصة المثال، وهو ما يكشف أنّ حقيقة التردد السردي لمقاطع من قصة موسى عليه السلام مرتبط بقصدية السارد في التأثير – درسا وعبرة – في الحركة التاريخية لحياة النبي عليه الصلاة والسلام – يقول الباحث– وفي حياة الناس في الأزمنة التالية.

ومن ثمّ يضيف الباحث أنّ المواقف التي عايشها رسولنا عليه الصلاة والسلام في أدائه للرسالة المحمدية تستنجد بأشكال مشهدية من العرض السردي، و قد كان يلبّيها السارد عز وجل ترفقا ورفقا بنبيّه الكريم، وكأنّ "الموقف في شدّته وتراخيه يملي على السرد كيفيّة إخراج نصه ومن ثم يكون المشهد السردي تقمصا لتوترات الموقف على نحو نعجز بعده عن تمييز الفاصل بين الموقف باعتباره معطى نفسيا وبين الشكل المشهدي باعتباره معطى فنيا"[18] يعبّر في حركيته السردية عن حاجة المتلقي للتّطمين، ويلبّيها تأنيسا وعبرة له.

وإذا ما رمنا إيجاد علاقة بينهما فإنّنا نستأنس بكون الشكل المشهدي يحمل خطابا ناقلا لمعطى نفسيّ عايشه موسى عليه السلام خارج زمان ومكان التلقي الدّعوي، وهو ما يجعل القصد والأثر حاضران في هذا التردّد دون ذاك حضور مماثلة بين السياق الخارجي للتلقي والسياق الداخلي لنص السرد.

يرصد حبيب مونسي هذه المماثلة في ترددين أو وجهين لقصة موسى عليه السلام، الوجه الأول من القصة المثال من سورة النمل في قوله عز وجل:**{إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12)}**[19].

أمّا الوجه الثاني من القصة المثال فمن سورة القصص في قوله تبارك وتعالى: **{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي**

قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)}[20].

إنّ التردد الأول الذي يكشف عنه نص النمل المكي يرسم سياقا خارجيا يكتنفه ضغط كبير على المتلقي عليه الصلاة والسلام، فهو يواجه تكذيبا وقهرا وتعصّبا جاهليّا يُثقل كاهله ويجعل من قومِه الذين نشأ بينهم خصومَه وأعداء دعوته التي لا يملك إلا الإخلاص لها، إنّه النبي الذي وثق به ربُّه فأوحى إليه مثلما أوحى إلى موسى عليه السلام أن يواجِه القوة العاتية فرعون وقد نشأ هو كذلك في كنفه ليصير عدوّا له، ومنه يخلص الباحث إلى أنّ تردّد نص النمل في سياق التلقي الدعوي كان الأنسب لتذكيره عليه الصلاة والسلام وإعلامه أنّه لم يحظ بأول ثقة من السارد عز وجل، بل إنّه رسول قد خلت من قبله الرسل، وقد تعرضوا عليهم السلام لمثل ما يتعرض له، لكنّهم صبروا واستحقوا أن يكونوا أنبياء ورسل يوحى إليهم كما استحقوا رحمة الله وإعانته في النصر على أعدائهم رغم فارق القوى بين الحق والباطل، ومنطقه الذي لا يعترف به السارد.

إنّه عز وجل يسوق إلى **سياق التلقي** سياقاً مماثلا يجني من خلاله المتلقي عليه الصلاة والسلام ثمارا قبل أوانها، ويستحصد من ظلال النسيج المشهدي قوة واثقة كل الثقة في النصر المبين الذي يستحق الصبر والجلد لأداء المهمة الدعوية، وهذا التماثل الحاصل بين السياقين هو مَن أملى عرض نص النمل دون النصوص الأخرى في مشهد كثيف العناصر جعل الهيمنة فيه من حظ موسى عليه السلام الذي يُعدّ إلى جانب محمد عليه الصلاة والسلام واحدا من الرسل الذين أهّلهم الله لحمل الرسالة السماوية الثقيلة.

وإذا كان نص النمل فيه موقفا تذكيريا للمتلقي بما عاناه الأنبياء في مهمّاتهم الدعوية نقله إلينا المشهد العامر بالأحاسيس والعواطف والخوف مما يحمله الغيب من مفاجآت قاتمة وكيد فرعوني عايشه موسى عليه السلام وانتصر عليه، فكان نموذجاً يتقوّى به المتلقي محمد عليه الصلاة والسلام.

إنّ نص القصص يحمل بدل الخوف بشارة زفّها التماثل بين سياقين مغايرين لسياق نص النمل الذي لم يرَ فيه الباحث متّسعا للبسط والتفصيل –خدمة للسياق الدعوي– الذي عاينه في نص القصص عن تعدد المستويات المركّبة لخطاب الله عز وجل وموسى عليه السلام، وهو ما سمح له برصد آلية البسط وسعة المجال المشهدي لعرض المزيد من العناصر المشكلة لنص السرد العام الشامل لجزئيات لا يعلمها إلا السارد عز وجل مقارنة بالوجه الذي تردّد في نص النمل من القصة المثال.

كما يلتفت الباحث في التماثل الحاصل بين سياق التلقي وسياق نص السرد إلى قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: **{امْكُثُوا}**[21]، فيهتدي إلى "أنّ المتلقي في السياق المقابل –سياق الهجرة إلى المدينة المنورة– يقرأ في المسير رمزية عودة مماثلة إلى البلدة التي أخرجه منها أهلها. لذلك كان التوقف عند مشاقّ الرحلة في القصص –

من خلال امكثوا- تنبيها إلى ما يكابده الرسول صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى معاده."[22] وبشارة خفية يعرض من خلالها السارد عز وجل انتصار الحق على الباطل ولو بعد حين من المكوث المعلن عنه في نص السرد.

إنّها لغة الوحي بين السماء والأرض التي أوكلت للمتلقي فكّ شفراتها بوصفه القارئ الأول المكلف بالأداء الدعوي استعدادا لما يخدم البشرية من إنجاز يترتب عليه.

ومن هنا يستخلص حبيب مونسي خصوصية تميز قراءة السرد القرآني عن بقية القراءات للنصوص الأدبية فكونُه وحيا من السماء يُبعده كل البعد عن كلام البشر ويُبعِد بالتوازي قراءته قراءة تماثل عن قراءة كلّ النصوص الأدبية بدون استثناء، ذلك أنّ القرآن الكريم هو نص استثناء في القراءة التي تملي على القارئ صياغة جديدة مختلفة ومتفرّدة تعكس تفرّده وتفرّد مادتها، حينها فقط تنبعث آليات قراءة هذا النسيج اللغوي في السرد فتتكشف ظلال خطابات السارد المتفرّد الوتر، وهي ترسم مشاهد حية متحركة تجعل القارئ يتموقع بين سياقين متراسلين، سياق الدعوة المحمدية التي تقتضي حكمة السارد المحيط بتفاصيل القصة المثال لموسى عليه السلام –ما ذكر منها في القرآن وما لم يذكر- أن يُدرجَ هذا الوجه منها دون الآخر في زمن التلقي، زمن النّزول وأسبابه.

بمعنى أنّ اقتطاع هذه الرؤية أو هذه الزاوية من القصة المثال مرهون بما يحدث في زمن التلقي للمُتلقي ولما عاصره ومن عاصره وبما يماثل ذلك قَبلا من أوجه تردد قصة موسى عليه السلام بما يتناسب والسياق الدعوي، متجاوزة التاريخ إلى ما يخدم موقف التلقي الجديد في نموذج موسى عليه السلام.

بل إنّ ذلك يتعدى حدود التلقي الأول للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى إحداث الأثر في كل قارئ لنص القصص "خارج إطار الزمان والمكان. فهي النّماذج الإنسانية: "المتكررة في كل جيل، المتشابهة في كل بيئة – وإن ظهرت كالمتخطّية لكل زمان ومكان- خضعت أول ما خضعت لمناسبات وأسباب، بتناولها أشخاصٍ معينين تناولا أوليا مباشرا."[23] لكنّها تحمل دلالة إنسانية ومغزى يتعلق بالنموذج البشري الذي يجعل من النص القرآني صالحا لكل زمان ومكان، تتردد فيه التجارب ذاتها بأشكال متغايرة في صراعها بين الحق والباطل، فتبرُز رعاية السارد للحق وإنزال الباطل ومناصريه إلى مصير واحد محتوم ولو بعد حين.

تسمح هذه المعطيات بمعاينة سياقين في السرد القرآني، الأول داخلي والثاني خارجي، ومن ثم يتناول حبيب مونسي النص السردي القرآني في إطار مقامين: مقام داخلي كما عايشه موسى عليه السلام، ومقام خارجي تاريخي متعلق بالمتلقي متجسدا في الرسول صلى الله عليه وسلم أو في المسلمين عبر العصور المتعاقبة. ولعل ذلك هو الذي يجعل السياق يتمتع بميزة" "الديناميكية" المحركة. فليس السياق مجرد حالة لفظ، وإنما هو على الأقل متوالية من أحوال اللفظ، وفضلا عن ذلك، لا تظل المواقف متماثلة في الزمان، وإنما تتغير وعلى ذلك فكل سياق هو عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث."[24] غير أنّ القراءة لا تكتفي بالوقوف عند حدود التاريخية، بل ستسبر جوهرها الحي من خلال إسقاطها على الحاضر المتجدد. ومن هنا تتبدى فاعلية سياق التلقي، فيغدو المتلقي أمام ترددات سردية قرآنية متنوعة، مختلفة، ومفتوحة بسبب فعل القراءة المنتج.

وفي الواقع، إنّ القراءة بالمماثلة التي توسل بها حبيب مونسي كانت تستهدف تجاوز ظاهر السرد القرآني، من خلال استكشاف ما يتيحه من انفتاح على عالم الخبر التاريخي من جهة، وعلى عالم الواقع الذي يعيشه المؤمنون والكافرون لحظة تلقي الوحي نفسيا؛ ولاسيّما أنّ الكثير من القصص قد حجبت الإسرائيليات حقيقتها التاريخية؛ وأضفت عليها هالة أسطورية بقصد التشويه والتزوير والتحريف تهويلا ومبالغة. ومن هذه الزاوية، يلخص الباحث حبيب مونسي " وظائف القراءة بالمماثلة" في النقاط التالية:

1_ تجاوز المتعة الفنية.

2_ تحديد هدف الأساليب السردية.

3_ تعيين المرتكز السردي.

4_ التمييز بين القصة ونص السرد.

5_ مستويات القصة.

6_ النموذج البشري."[25]

5.خاتمة:

وكل ذلك من أجل معاينة تقلبات الإنسان بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، والاستسلام لله وعصيانه. وفي هذا الإطار يكون الباحث قد اختبر المقاربة بالمماثلة في قصة موسى عليه السلام.

نستطيع القول بأنّ حبيب مونسي قد سعى في قراءتهللمشهدوالتردد السردي في القرآن الكريم أن يكون واضح الرؤية ومتحكما في إجراءاته؛ التي تمتعت بالمرونة في مقاربة قصتي يوسف وموسى عليهما السلام. وفي ذلك كله كان متوسلا بالسؤال من أجل استنطاق مكنونات السرد القرآني. "باعتباره وسيلة من ضمن وسائل أخرى في التحليل...فيشير إلى تصور النص باعتباره سؤالا عن جواب، وإلى دور المساءلة في تقدم عملية التأويل والذهاب بها إلى أبعد حدودها."[26] وهذا ليس بغريب في قراءة الباحث للنص القرآني فهما وتحليلا وتأويلا.

6.الهوامش:

[1]- حبيب مونسي، التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010 ص351.

[2]- المصدر نفسه، ص33.

[3]- المصدر نفسه، ص40.

[4]- المصدر نفسه، ص40.

[5]- سورة طه، الآيات: **37_40**

[6]- سورة القصص، الآيات: 7_13

[7]- حبيب مونسي، الواحد المتعدد، النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2005، ص69.

[8]– الزركشي، البرهان في علوم القرآن،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، 1376هـ -3،8/1957.

[9]– المصدر نفسه، صص.69-70.

[10]–المصدر نفسه، صص.71-72.

[11]– مصطفى الصّاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1985 ص.69.

[12]– حبيب مونسي، التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ص351.

[13]– المصدر نفسه، ص49.

[14]– محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط.1، 2006، ، 261/1.

[15]– حبيب مونسي، التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ص52

[16] سورة القصص، الآية: 85

[17]– حبيب مونسي، التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ص58.

[18]– المصدر نفسه، ص75.

[19]– سورة النمل، الآيات: 7_12

[20]– سورة القصص، الآيات: 29_35

[21]سورة القصص، الآية:29. {فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)} [القصص: 29]

[22]– حبيب مونسي، التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، ص82.

[23]– المصدر نفسه، ص112.

[24]– فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013، ص329.

[25]– حبيب مونسي، التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، صص.553- 556.

[26]– رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، الحريري بين العبارة والإشارة، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، ط.1، 2010، ص490.

7.قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. حبيب مونسي، التردد السردي في القرآن الكريم، مقاربة لترددات السرد في قصة موسى عليه السلام، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010).
2. حبيب مونسي، الواحد المتعدد، النص الأدبي بين الترجمة والتعريب، (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، 2005).
3. رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، الحريري بين العبارة والإشارة، ط.1، (مصر: رؤية للنشر والتوزيع 2010).
4. الزركشي، البرهان في علوم القرآن،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (مصر: عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1376هـ -1957).

5. فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، (الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق، 2013).
6. محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، في التعريف بالقرآن، ط.1، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006).
7. مصطفى الصّاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، (الإسكندرية، مصر: منشأة المعارف،1985).